

أثر الحياة الاجتماعية في وجهة الشعر في إربل في القرن السابع الهجري

د / أحمد علي إبراهيم الفلاح

جامعة الفلوجة/العراق

الملخص:

لا تكمن غاية البحث لإخضاع النص الشعري للدرس النقدي الحديث قدر ما تسعى لدراسة المنتج للمنهج الاجتماعي، وبيان أثره في وجهة الشعر في إربل في تلك الحقبة ، وإخضاع عالم الشاعر الداخلي لمؤثرات الحياة الاجتماعية ، فضلاً عن بيان رؤية الشاعر وتأثره بعالمه المحيط لاسيما في بيان شكوى الشعراء من نكبات الزمان ، والمُثل العامة الطارئة على المجتمع آنذاك وأثر المجالس الاجتماعية في شعرهم، والتي غابت عنها - تقريباً - أقلام النقاد ودارسي تاريخ الأدب واهتمت بدراسة الأغراض الشعرية عند بعض الشعراء على وفق المناهج الحديثة .

Abstract :

No one can understand literature without understanding the lifesurroundsit. Therefore the process of explaining the literary influence needsalot of factprs relevant to the human directly.besides the .ideological andcultural sequence has extremely affected on the establishing and developing of literary arts .this study have traced the abllity of the establishing the internal world of the poet or the poet vision to they external world as it reflected in inside him: and how these ramose and conflicting contents have participated in creating his special

vision through his self – experience mixed with his imagination and feeling

لا يمكن فهم الأدب فهما كاملاً وعميقاً بعيداً عن الحياة المحيطة به , فعلى الرغم من تحرره من بعض المقاييس الاجتماعية من الناحية النظرية , إلا أنه في واقع الأمر يبقى مقيداً بها ولا ينفك منها نهائياً , ولأسيما حين يقيم الأثر الأدبي بمدى ارتباطه بمصير الأديب والمجتمع , ذلك أن الأدب مرآة تعكس صور الحياة فتكشف عن علاقة الشاعر أو الأديب ببيئته وتفاعله معها .

و يستمد الفرد – بصوره عامة – من الوسط الذي يعيش فيه منظومة أفكاره وقيمه , وأنماطه السلوكية الإيجابية والسلبية , مما للبيئة من دور كبير في تشكيل شخصية الإنسان وترك بصماتها على سلوكه وفكره وأخلاقه . فالبيئة الاجتماعية تُعد من العوامل المهمة التي تؤثر في الفنان بشكل أو بآخر في تعزيز مدركاته الحسية , لأنها تشكل مصدراً ملهماً للكثير من الأعمال الفنية .

لذلك فإن الأثر الأدبي لا يمكن تفسيره في كثير من الأحيان إلا في ضوء بعض العوامل ذات الصلة المباشرة بالإنسان , كما أن السياق الحضاري والفكري والاجتماعي له هو الآخر أثره في نشأة الفنون الأدبية وتطورها .

ولسنا هنا في معرض استجلاء المناهج , قدر ما نحاول بيان آثار الحياة الاجتماعية في الأدب من خلال العلاقات الاجتماعية المتحركة , والأعراف السائدة , فضلا عن الموروث الفكري والديني , فالمنهج الاجتماعي يسعى إلى البحث عن الطرق التي يعكس بها الشعر الواقع , وعلاقته بالمجتمع الذي أنتج فيه لذلك سوف نهج منهجاً اجتماعياً للوقوف على هذه العلاقة .

و سنحاول أن نتتبّع كيف استطاع الشعر أن يُعبّر عن عالم الشاعر الداخلي , أو رؤية الشاعر للعالم الخارجي كما انعكس في نفسه , وكيف انصهرت هذه المضامين المتشعبة والمتضاربة في نفسه لخلق رؤية خاصة به يقدمها من خلال تجربته الذاتية الممزوجة بخياله وحسه , لأنّ الشعر يخاطب العقل والعاطفة معا , لذلك بات لكل عصر أدبه الذي ينسجم والذائقة الفنية لمجتمعه فضلا عن وجهته الاجتماعية .

ومما لا ريب فيه أنّنا لا نستطيع تذوق الأدب وفهمه مالم نستوعب سمات عصره , وحالة الشاعر المعيشة ضمن محيطه ذلك أنّ (الفنان يصدر عن إحساس عميق بمشكلات بيئته ينتخب منها ما يشاء بوساطة إدراكه الذكي الذي يعيد تنظيم تلك المشكلات في صورة فنية , محاولاً وضع حلول نظرية لها إذا شاء , وهو في كل ذلك يستخدم كل ما أوتي من طلاقة ومرونة وأصالة) (1) .

والشعر ينبثق من بيئات اجتماعية وفكرية, وشخصية متباينة, فإذا ما تجاوزنا الوعاء الفكري للشعر إلى الوعاء الاجتماعي , وجدنا أنّ تعدد بيئاته , وتغير نمط حياة الشعراء كان له الأثر الواضح فيه .

لذلك كان الشعر صورة عن البيئة الاجتماعية في إربل , لا يختلف عنها كثيراً , مهما تنوعت معطياته , وتعددت فنونه , فقد تساوى في خصائص متعددة علمية واجتماعية وفنية مقلدة ومبتكرة . فكانت موضوعات الشعر في تلك الحقبة صدى لمظاهر البيئة حين عبر عن الشخصية الإقليمية لأدب ذلك العصر , ولا يمكن لباحث منصف أن يصف شعر ذلك القرن بصفة واحدة , كما لا يستطيع أن يحكم عليه حكماً واحداً , إذ يمكن أن نواجه نتاج شرائح انفردت بميزات اجتماعية أو فكرية خاصة .

و لم يكن لإربل - أو أربيل كما تسمى اليوم - أي شأنٍ قبل الفتح الإسلامي خلا ما جاء من ذكرٍ لها في الكتابات البابلية والأشورية ، من أنها مدينة عريقة منذ أقدم العصور (2) .

اشتهرت كثيرًا في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وعدت مركزًا مهما من مراكز العلم والأدب ، وذلك للدور الكبير لأمرائها في دفع مسيرة الثقافة العربية إلى مراتب الرقي ، ولاسيما أسرة (ال بكتكين) التي حكمت إربل أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع للهجرة ، حين اهتمت بالعلوم والآداب ، وبناء المدارس ، فكان من نتائج هذا الاهتمام الكثير من رجالات العلم والأدب والكتابة والشعراء المشهورين (3) .

وسنسلط القول على الأغراض الشعرية حسب سعة تأثيرها بمعطيات البيئة الاجتماعية آنذاك .

الشكوى والتحسر :

إنّ وقوع الشاعر تحت ضغط اجتماعي ، شخصي أو عام حري بأن يترك بصماته على نتاجه الأدبي .

ف للبيئة أثرها في الوجهة الفنية والذوقية للأديب من خلال بيان بعض العادات والتقاليد السائدة ، إذ إنّ أدب كل أمة هو صورة منتزعة من واقعها . حين يستلهم الأدباء تجاربهم من الأحداث وما قد تحدثه من انطباعات وأفكار في النفس مما يجعله تمثيلا صادقا لكيونة الأمة وذاتها ، ولذلك تولد القصيدة - عادة - في عالم متغير وظروف متنوعة تستسقي قوانينها (عن معنى الأدب من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي، ومن تنظيم صناعي تام الوعي) (4) .

وانطلاقاً من الفرضية التي رسمناها وانطلقت منها دراستنا حول شفافية النفس العربية ، ورقتها ، نجد الشعراء يأتون من ألم الفراق ولاسيما بُعد الخلان والأصدقاء كقول أبي إسحاق بن أبي العز المستوفي الإربلي (كان حياً سنة 654هـ) يشكو الفراق :
(الطويل)

إلى الله أشكو من هموم تواصلت أما تغلظ الدنيا لنا بصديق
لقد خانني لما هجرتم مواصلي وقد صد عني معشري وفريقي
فواحربا كم تضرمون بصدكم وإعراضكم في القلب نار حريق
أقاسي هُموماً من أناس فعائلهم قذى ليعيؤون أو شجى لحُلوق⁽⁵⁾
وقد ألفت الحياة السياسية المتدهورة آنذاك ، فضلا عن سعة التهديدات الخارجية ، بضلالها الثقيلة على المجتمع في إربل ، حتى أصيبت الأوضاع الاجتماعية بالتدهور ، ولحقها ما لحق الحياة السياسية من فساد واضطراب وتناحر ، لصلة الجانب الاجتماعي بانعكاسات الحوادث السياسية ، وربما دفعت سوء الأقدار بالشعراء إلى بث شكواهم ويؤسهم ، فضلا عن الفقر الذي دفع البعض منهم إلى الاستجداء ، ويعكس بعض الشعراء طبيعة حياته حين يشكو لمرؤوسه قلة نفقته على عياله، وسوء أحواله ، كما في قول عمر بن إبراهيم أبو حفص الإربلي (كان حيا سنه 654هـ) : (الخفيف)

يامليكي اسمع شكاية عبدٍ من بني الشيخ مُعَلِّم الطَّرفين
ماله ملتجأ سوى بابك المحرو س في المشرقين والمغربين
نهبتهُ الخيلُ العتاقُ وأفنت ما حواه من كلِّ جنس وعين
كلُّ يومٍ لهم وللبيت يا مولا ي موتٌ يزيد عن دانقين
ويزيدُ الغلامُ مَتَّى إذا سام ح نقداً في الشَّهر دينارين⁽⁶⁾

ولكن ذلك لم يشكل ظاهرةً شائعةً على الرُّغم من شدة حاجة الناس آنذاك ، إذ حاول الشعراء مواجهة الحياة وقسوتها عن طريق مخاطبة النفس ودعوتها إلى التَّجمل بلباس الصبر، طلبًا للراحة ، وربما نلمس في تلك الدعوات بعض آثار اليأس حين يسلّم الشاعر نفسه للأقدار ، بعدما وجد أنَّ إذلال بعض الشعراء لأنفسهم لم يجد نفعًا أو أثرًا في نفوس غيرهم ، فيقول غرس الدين الإريلي (-679هـ) : (الكامل)

صبرًا عسى يا نفس تلقى راحةً
فالصبرُ خيرٌ من توجعٍ شامتٍ
بعد الأياس وتذهب الآلامُ
يُبدى التأوه ما به إيّلام
لا تسأل الأيام دفع مُلمةٍ
أنَّ الشدائد مالمهَّنَّ دوامُ⁽⁷⁾

حين غدا الاستجداء وسيلة من وسائل التكسب عندهم ، ولاشك في أنَّ الاختلال الكبير في التوازن الاجتماعي الذي نشأ بسبب سوء توزيع الثروات فضلا عن تدهور الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي كان وراء هذا النمط من السلوك الذي نجد آثاره في قول ابن الظهير الإريلي (-677هـ) وهو يستجدي من ممدوحه فروة : (مجزوء الكامل)

البردُ قد وافى يُجرّ
وجيوشه قد أقبلت
ر ذيل تيهٍ واعتدا
فاستوعبت كُلّ الفضا
والصبرُ منذ رأى بقا
فانعم عليّ بفروة
تعدى على بردِ الشّتّا⁽⁸⁾

ولأنّ الشاعر إنسان متمرّد بطبعه نجده يتأرجح بين مهاجر مغترب ، أو معاند ثائر ، يدفعه عناده فضلا عن سوء الأقدار السياسية والاجتماعية إلى القبوع في السجون لحقب طويلة ، وذلك ما عاناه الكثير من شعراء إربل بسبب اعتراضهم على السياسات القائمة وقتئذٍ ، أو الوشايات الكاذبة التي تدفع بالقائمين إلى سجن هؤلاء الشعراء ، لذلك بدا السجن يمثل حالة من حالات الحرمان الحسي ، وغدت تنطلق

مخزونات الباطن لتصور العزلة التي يحققها العيش بين الجدران والأصفاة ، فالشاعر السجين (يعيش في حالة الحرمان الحسي من الداخل وبعالجها معالجة ذاتية لا يحسها إلا من كان ضحية السجون ، ومن النتائج التي تظهر في سلوك السجين ميله إلى الاكتئاب ومعه القلق والتطير)⁽⁹⁾ .

وتظهر صورة الجزع والتوتر النفسي اللاهب عند الشاعر بوساطة تلك الصيحات التي يطلقها مستجيراً بمن يرى فيه الأمل المنشود كقول الحاجري (-632 هـ) مترجياً أمير إربل أن يطلق سراحه :

(الوافر)

يسعني عنك ذا التأخرُ يامن
جُعِلْتُ فِداهُ أسبابٌ وعُذُرُ
بُلَيْثُ بكاشحٍ ما منه بد
وربعٍ فيه سَجَانٌ وأسرُ
كَأَنِّي يُونسُ والرَّيْعُ حوْتُ
ومن حولي وقيت الشرَّ بحرُ⁽¹⁰⁾
وتتنامى مشاعر الحزن والقلق بين جوانحه ، حين تضيق نفسه بالمكان المفروض ، فيطرق كل الجنابات ليستدر عطفها ، ويثير مشاعرهما ، فلا يجد صدًى لأتاته ، فتقلب تلك الصرخات اليائسة إلى ثورة نفسية موحشة تنبث معالمها وسط نبرات الحزن جبرا لقيود السجن يفرض عليه حالة نفسية موحشة تنبث معالمها وسط نبرات الحزن والحسرات والألم والفرق ، التي تعكس عمق مأساة الشاعر السجين واضطرابه النفسي ، ولأسيما حين يفتقد تلك الأواصر الاجتماعية وتتقطع معها سبل التواصل مع الأهل والأحبة، فيشعر بعجز يفقده إحساسه بوجوده في هذه الحياة .

فشكوى السجين من الاضطهاد ، والقسوة ، والهوان قد تنصب على الزمان والمكان لإفراغ تلك المأساة عن نفسه ، وهما مأساة السجن وظلامه ومأساة الانفصال عن

الأحبة والبعد عنهم ، وذلك الشعور نلمسه في قول الحاجري :
(المجتث)

تباً لدهرٍ أصابت لشمّلنا فيه عينُ
سجنٌ وقيدٌ لِعَمري هل للحوادث دينٌ؟
السّجنُ لا غيرُ صعبٌ فكيف سجنٌ وبينُ؟⁽¹¹⁾
وقد يستعين الشاعر السجين بأقرب الموجود من أجزاء المحيط الذي كان يتعامل معه قبل سجنه ، حسياً أو معنوياً فيتعامل معه ويعدّه رمزاً متبقياً من رموز الحرية المنشودة⁽¹²⁾ يستذكره بألم حاد، كقول علي بن شماس الإربلي (-622هـ) يعاتب من سجنه : (الطويل)

ونهجُ أوطانِ البلى ومنازلٍ غبوقي أحزانٌ بها وصبوُ
ونعدمُ أثقالِ القيودِ وتذهبُ ال جُروحُ بأقدامٍ لنا وقروحُ
إلى الله يشكو قسوةَ الدهرِ عاجزٌ ذليلٌ على فرشِ الهوان
طريح⁽¹³⁾

وفي الوقت الذي تعلق فيه زفرات الألم، وحسرات حارة تعج بالأسى ، والحزن، والوحدة صوب الذات وأحلامها المنكسرة فـ(الإحساس بالظلم والغبن لدى السجين يسبب حالة وجدانية يرى من خلالها أنه في عالم غير عالمه فقد تحول عنه أصدقاء الأُمس وربما الأهل إلى غرباء مقصرين فهو بالنسبة لهم منبوذ⁽¹⁴⁾ وذلك حس لمسنه في قول إسحاق بن معالي بن شماس الإربلي : (الوافر)

جوى بين الضلوعِ له ضرار وصبُّ لا يُزِيلُه الغرامُ
وأجفانٌ تسحُّ دمًا ودمعًا مُسَهَّدَةٌ إذا هجع الثَّيامُ
ثم يستذكر ليالي الصبا فيقول :

ديار رَقَّ ثوبُ العيش فيها وطابت لي بساحتها المدام
 قطعتُ بها لُييلات قصارًا على تلك اللييلات السَّلام
 ويتضح في القصيدة نفسها ذلك الاضطراب النفسي والقلق الذي يدفع النفس إلى
 فقدان التوازن والاستقرار حين يشكو سجنه قائلاً :

وكيف ينامُ صبَّ مُستهامً له في السَّجن عامٌ ثم عامٌ
 بلا جُرْمٍ تقدَّم منه لكن له في المجد بيتٌ لا يُرامُ⁽¹⁵⁾
 ونلمس في قول الشاعر وغيره إشارة إلى الوشاية التي لعبت دورًا في تفسخ العلاقات
 الاجتماعية ، حين وجدت صدى وأذنًا صاغيةً لها ، فالعلاقات الاجتماعية القائمة
 بين الناس تحكمها الضوابط الاجتماعية ، والخروج من هذه الضوابط يشكل خطرًا
 داهمًا على تلك العلاقات .

لذلك فإنَّ بيئة الشاعر الزمانية والمكانية من خلال سوء الحياة الاجتماعية ، وعدم
 الاستقرار والقلق ، وانعدام الشعور بالأمن ، فضلا عن التهديدات الخارجية كانت
 سببًا في تنامي عاطفة الحزن والمرارة والميل إلى اليأس والكآبة ، وتلك مشاعر
 المحرومين الحزاني.

لكن الشاعر يحاول البحث عن عالم بديل يهيم في فيافيه مؤقتًا لأنَّ (الفنان يحاول
 بعمله الفني أن يصل إلى الامتلاء وأن يتجاوز الحدود التي يفرضها عليه الاستلاب
 الاجتماعي)⁽¹⁶⁾

فوسط هذا التحول النفسي عند الشاعر حين راح يسترسل في شكواه بتعدو الحكمة
 مطلبًا تبحث عنه النفس لإثارة السكينة والقناعة ، لكنَّها لا تعبر بالضرورة عن موقف
 فلسفي للشاعر يعكس نظرتَه إلى الحياة وأقدارها ، إذ هي في حقيقة الأمر لا تعدو
 أن تكون خطرات ذهنية وقناعات مؤقتة فرضتها عليه حوادث الزمن المحيطة به ،

لذلك نجد الشاعر هنا بعد أن استيقظ من حلمه بجذوى شكواه يُفنع النفس بتبديل أحوال الدهر , وفي ذلك يرسم أملاً خفياً أمام نفسه , تستسلم فيه النفس المتعالية أمام قضاء الله وقدره , إذ يقول : (البسيط)

والسَّجْنُ لله والإفراجُ منه فما يُغني احتيالٌ لذي رأى ومُحتالٍ
والدَّهْرُ والله لا يُبقي على أحدٍ ولا ترى حاله تُبقى على حالٍ⁽¹⁷⁾

إذ إنّ محاوله تهدئة النفس من فعل الأيام قد تتأتى من العبرة والموعظة , ولاسيما حين تُصير نفس الشاعر حسها إلى فلسفة الوعظ والصبر والتأمل . ومما لاشك فيه أنّ الشعر قائم على غرض إنساني , وهو التلاؤم بين الشاعر وواقعه الروحي والسياسي والاجتماعي , أو تنافرهما , إذ يعقب ذلك شعور بالانتماء والرضا , أو السخط والتحسر .

فالشعر العربي عبّر عن صدق التجارب النفسية والعاطفية والحياتية للفرد , لأنّه صياغة فنية لتجربة بشرية , حين يعمل الشاعر على تحويل الانفعالات الداخلية إلى عمل فني رائع , بوساطة الوعي الكامل بالصراع القائم بينه وبين ذاته من جهة , وبينه وبين البيئة المحيطة من جهة أخرى ودرجات متفاوتة .

و يستلهم الشاعر أحداث الواقع ويخرجها في صور فنية- بعد استيعابها- تشف عن واقع الحياة وما فيها بعد أن يضفي عليها شيئاً من إحساسه ومشاعره, فتأتي صورته واقعية في تعبيره الشعوري الذي يعتمد ملكة الخيال في تشكيلها.

وقد تدفع الحاجة بالشاعر إلى سلوكيات معينة يبتعد فيها عن بعض القيم السائدة , ذلك أنّ القيم هي إحدى أنواع الحاجات , أي أنّها (قوى ذاتية تؤدي إلى بعض

الميل العامة ، أما القيم فهي المقاييس التي تحدد نوع الفعل أو العمل الذي بواسطته يحاول المرء بلوغ غايته أو إشباع حاجته (18).

ذلك أنَّ المعادلة الجدلية القائمة على ضدية النظرة لم تنبثق من رؤية فردية خاصة ، وإنما تُجسّد الوعي الجمعي العام ، لأنها تنطلق من نظرة إنسانية تمثل تجربة الإنسان في هذا الكون وفي ظل تقلبات الزمن (19) ، وخشية غوائل الفقر الذي يمثل انتكاسة نفسية محبطة أمام مطامح الفرد المنشودة ، وأمام تجليات الواقع المتصارع بين طرفي المعادلة المادية ، التي عكس مؤثراتها في النفس ابن البورياني الخطيب (كان حيا سنة 654هـ) حين كتب إلى صديق له يستمد منه الشفاعة في حاجة عرضت له ، إذ يقول :

(البسيط)

شكوتُ دهري إلى خلٍّ فأرشدني	إلى كريمٍ يُزِيلُ الهمَّ والكُربَا
وقال : لا تلح دهرًا فيه سيِّدُهُ	فذا أقام منارَ الدِّين والأدبا
فقلت : مَنْ ذاك قل لي ناصحي وحزّت	شُكْرًا أضمنه الأوراق والكتبا
فقال : واعجبا من ذي نُهي ندس	عداهُ فضلُ سديد الدِّين واعجبا
ألا لمعِيّ الذي ما خاب مُنتجعٌ	جَنَاتُهُ من حوى من برّه نشبا (20)

وقد يلقي بعض الشعراء بمسببات سوء الأوضاع وانعكاساتها في نفسه إلى ما آل إليه الزمان في علاقاته الاجتماعية ، في ظل الفوضى والاضطرابات التي عمت إربل في تلك الحقبة ، من تهديدات خارجية وانعكاساتها على الوضع في داخل إربل ، فالزمان صنو المصائب عند ابن الظهير الإربلي حين حمّله كل تلك الهموم والأحزان ؛ لأنّه لئيم صد عن الكرام وأقبل بوجهه إلى غيرهم ، إذ يقول :

(الخفيف)

أجل الفكر في الزمان واهلي
وطني علا به الجد حتى
لا تغرنك الوجوه فما كل
كيف ترجو الوفاء من أهل دهر
ه اعتباراً فالكون جمّ عجابه
أوطأت هامة الثريا ركابه
سحاب يروق يرجى ذهابه
قد تساوت أبنائه وثنابه⁽²¹⁾

وتبقى الشكوى سمة طبيعية ملازمة لقسوة الحياة ، وتتكيل الزمان ، وتبدل الأحوال
وجفاء الأهل والأحبة ، إذ واجه الشعراء تلك الحقيقة بمستويات مختلفة من النظر
والرؤية ، إلى عدل الزمان وجوره ، فيقول سليمان بن جبرائيل بن ابي القاسم العقيلي
الإربلي (كان حيا سنة 654هـ) بعد ما يؤس من عدل الزمان :
(الرملة)

لاتسل عن ذلك الربع وسل
لعب البين بهم فافترقوا
أين أرباب قدود كالأسل
آه من جور زمان ما عدل⁽²²⁾

ومما يرتبط بشكوى الزمان أثر الشيب في النفس ، كونه يشكل مظهراً من مظاهر
فاعلية الزمن بالإنسان ، وإذا كان الشيب نتاجاً من الزمن فإن الوعي الإنساني القلق
يدرك أنّ الزمن (لا يسير إلا في اتجاه واحد ، ولا يقبل الإعادة بأي حال من الأحوال
.... وربما كان أقسى ألم يعانيه الإنسان هو ذلك الألم المنبعث من استحالة عودة
الماضي ، وعجز الإنسان في الوقت نفسه عن إيقاف سير الزمان)⁽²³⁾، وإزاء ذلك
يدخل الإنسان مرحلة جديدة من المعاناة والفقد ، وتلك مشاعر عاناها الشعراء على
مر العصور ، ولم يختص بها شعراء إربل وتواصل الشعراء في تفاصيلها واعتصار
معانيها ، لذا فلن نطيل الوقوف هنا كونها مؤثرات عمّت كل العصور. ولا بد لكل
شاعر مهما تطاول عليه - الشيب - أن يغدو في النهاية إلى قناعة مؤلمة يرحب
فيها به ويهاب مفارقتة ، كقول مجد الدين النسابي (-657هـ): (الكامل)

وخشيت من وقع المشيب فعندما
وافى خشيت بأن يكون مفارقي

لوكانَ يَنْفَعُنِي البكاءَ على الصَّبَا لبيكُ من شوقٍ له بشقائق (24)
كما أيقن بهاء الدين الإريلي (-692هـ) باستحالة عودة الشباب والصبا في الخضاب
والحناء حين استسلم للأحزان والجزع ، إذ يقول :

فطالبي رجوع مافات من عصـ ر الصبا والشباب عين المحال (25)
العادات والمثل العامة

لاشك أنَّ البيئة الطبيعية ، والنظم الاجتماعية ، تسهمان في تشكيل الوعي الإنساني
والتأثير فيه، وإصباغ بعض السمات الفسيولوجية والنفسية التي تميزه من البيئات
الأخرى .

فالمجتمع في كل البيئات الإسلامية يقوم على مجموعة من القيم الأخلاقية التي
عززها الإسلام ، وتحكمها العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، فغدت منهجاً يخضع
لضوابط ذاتية منبعها الضوابط الاجتماعية العامة ، فالصدق ، والوفاء ، والحلم ،
والعدل ، تمثل قيماً تترجأها الطبيعة الإنسانية ، لكن أي خرق يصيب هذه القيم
والمثل يؤدي إلى تفكك حلقات التواصل الاجتماعي ، فتطفح بواذر الاستنكار
والرفض . ذلك أنَّ التجربة الأدبية منبعها النفس وباعثها الانفعال الصادق ، في
ترجمة فنية لما تجيش به النفس من مشاعر وعواطف نحو رفض الواقع وإعادة
تشكيله .

ونجد الشعراء يأتون من ضياع سمة الوفاء حين تغلب المصلحة الخاصة على
الصدق والوفاء ، وذلك أكثر ما يحزن الشاعر يوسف بن أبي المعالي المرّلي (-
638هـ) حين جفاه الأصدقاء بعدما أنفق كل قوته في صحبتهم إذ يقول :
(الكامل)

ولقد سمحتُ بكلِّ ما ملكت يدي للأصدقاء فمسنِّي الإعسارُ
فتكدَّروا بعد الصَّفَاء كأنَّهم ما كان لي فيهم يدٌ ويسارُ⁽²⁶⁾
ويتأسف حين يجد الصدق والوفاء مرتبطين باليسر ، ويهرع الصديق لخيانته عند أول
عسر يصيبه ، فيقول :
(الكامل)

حالي وحادثه الرِّمانُ كلاهُما عجبٌ وذا أمرٌ عليَّ يهونُ
إن ألق يُسرًا فالعدوُّ له وفا أو ألق عُسرًا فالصديقُ يخونُ⁽²⁷⁾
لذلك نجد إسحاق بن المعالي الإربلي (-617هـ) يرفض قومه ويعددهم شرًّا أضاعوا
كل القيم المتوارثة ، فيعمد إلى تشبيهه طريف يشير إلى ضياعهم حين يشبههم بالخمر
وهو شرُّ بأكمله ، لكنه معتصر من فاكهة كريمة وهي العنب فيقول : (الطويل)

ألا إنَّما قومي حلالٌ أبوهُم ولكنَّهم كالخمر والدُّها العنبُ
فجاؤا حرامًا من حلالٍ وإنَّهم لشرُّ بنين ينسبون لخير أبٍ⁽²⁸⁾
وما ذلك إلَّا سلوك الجاهل الذي أضاع عزًّا بجهل طغى على بصيرته ، وهو حمق لا
يدعو إلى العجب لذلك يقول محمد بن أبي محمد الإربلي (-697 هـ):
(السريع)

لا تعجبوا من جاهلٍ أحمقٍ بُدِّل دُلًّا دائمًا عزُّه
إن كان قد صدَّره عجزُه دهرًا فقد أخره عجزُه⁽²⁹⁾
وقد تضيق نفس الإنسان فتلقي بتلك الهموم على الزمن ومحنه حين تجد في الليل
زمنًا نفسيًّا تعبر من خلاله عن واقعها المتأزم ، الذي يؤرقها بالهموم والأحزان ولاسيما
حين تغدر الليالي بالصادق الوفي ، إذ يقول أحمد بن الحسين الضرير المعروف
بابن الخباز (-639هـ) :
(البسيط)

فلا تنق بالليالي طالما غدرت بذى الوفاء ولو أعطته ميثاقا (30)
فالزمان كثير الكرى ، صنو المصائب ، جافى الكرماء ، وصاحب اللئيم ، حين علا
به ، إذ يقول محمد بن أبي محمد الإربلي : (الخفيف)

قد دُفَعنا إلى زمانٍ لئيمٍ لم نل منه غير غلِّ الصُّدور
ومُئِننا من الورى بأناسٍ تركتهم أعجازُهُم في الصُّدور (31)
في حين لم يضطر شعراء آخرون إلى ذم الزمن ، وصب غضبهم عليه ، لأنهم
يعلمون أن أهله أو حكامه في الدنيا ، هم من أساؤا ، إذ لعبت الظروف السياسية -
آنذاك- وما تبعها من تداعيات سلبية دورًا بارزًا في إثارة حس الشعراء نحو صراع
نفسى متأرجح بين المتطلبات الموضوعية التي توجب تفاعله مع تلك الأحداث ،
وبين الرغبة الذاتية نحو الشعور بالاستقرار ، والأمن ، وهو شعور يظل يحن إليه
الإنسان طوال حياته مهما فرضت عليه من نظم موضوعية (32) ، إذ نجد بعض
الشعراء يوجهون نقدهم وهجاءهم للرؤساء والموظفين مشيرين إلى ضياع هذه القيم
لديهم ، ومتجاوزين نعتهم بالعورات والعيوب الأخرى ، لأن أبلغ الهجاء (أن يسلب
الإنسان الفضائل النفسية ، وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان في الخلقة
الجسمية من المعاييب ، فالهجاء به دون ما تقدم (33) ، فضلا عن الأساليب
البسيطة السهلة التي تقترب من لغة العامة وطرقها في التعبير ، كقول عثمان بن
إبراهيم الإربلي (-632هـ) في ذم رؤساء الناس في إربل: (السريع)

يا رؤساء النَّاس في إربل ما أغرب الخيرَ بناديكم
لو جُمِعَتْ حُسَابُ كُلِّ الورى أعياهم عدُّ مساويكم
لاتيُلكُم يُرجى ولا جازكم يُحمى ولا يُخشى مُعاديكم
منكم أنا لكن طباعي أبت أتي على اللؤم أداجيكم (34)

كما حاول الشعراء الإشادة بالمثل والعادات الكريمة ، التي تحلّى بها الممدوحون من خلال استحضار الماضي ، فكانت ثقافة الشاعر عاملاً أساسياً في تمكّنه من إدراك الأشياء عن طريق أفكاره وتصوراتهِ وما ينتج عنها من قيم فنية ، فتقافته تكتسب ديمومتها بوساطة الصلة الوثيقة التي ترتبط بكل مظاهر المجتمع وظواهره ، وللتقافة الأثر الكبير في تعبير الفنان (لكونها من الأسس الرئيسية للتطور الاجتماعي وانعكاسها يكون من خلال المتغيرات في النزاعات والميول الخيالية التي تسببها في الاتجاهات الخطية الماثلة في تطور الأساليب الفنية)⁽³⁵⁾.

لذلك نجد الشعراء يركزون في مدحهم على المعاني التي تجسّد القيم الخلقية في سلوك الممدوح ، فضلاً في تمسكه بكتاب الله - سبحانه - وسنة نبيه p ، ولاسيما صفة الكرم المتأصلة في النفس ، والتي تغنّى بها الشعراء كثيراً ، إذ يبدو أن (العادات والتقاليد الاجتماعية بأي صورة هي مجموعة الأفعال والممارسات العفوية التي تعارفها الناس حتى صارت ملزمة)⁽³⁶⁾.

لذلك نجد يونس بن أبي الخير الإربلي (-634هـ) يستحضر شخوص التاريخ عند مدح سمة الكرم عند شرف الدين بن أبي البركات ، إذ يقول : (الوافر)

لأطيبُ (من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى) دارٌ بشرقي إربل
وصهباء كالمصباح في يد شادنٍ رقيق حواشي الخدّ عذب المُقبل
يطوف بها كالخيزرانة ساحرُ الجُفونِ متى يلحظ بعينه يقتل

فما العيشُ إلا بين حانٍ وحانةٍ مع الراح (لا بين الدخولِ فحولٍ) ⁽⁴⁰⁾

وربما يغدو سوء الوضع الاقتصادي للشاعر ، إلى المبالغة في الإطراء ، ووصف سمة الكرم عند الممدوح ، كقول أبي الربيع الإربلي في مدح صاحب شرف الدين:

(الكامل)

يا أيُّها المولى الوزيرُ وماجِدُفي كَفَّه البِيضاءَ خمسَةً أبحر
ورضِيعُ درِّ المِكرَماتِ ومَن له جودٌ كمنهَلِّ السَّحابِ الممطرِ
فاق الأَنامَ بهمةً مشكورَةً وعزيمةً فُرنت بسعدِ المُشتري (38)
ويبقى الكرم من السمات الاجتماعية المصاحبة للممدوح حين يشيد الشعراء بها، لأنَّها
فضيلة يعتز بها العرب كثيراً ، فالمدح بها (يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب
شدة البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح ، والجود والسماحة ، و البذل
والعطية ، كان المديح حسناً والنعت تاماً) . (39)

المجالس الاجتماعية :

1- مجالس اللهو والشراب : اعتاد الشعراء هذه المجالس منذ العصر العباسي ،
يتشادون الأشعار بجانب الخمرة واحتسائها ، حتى غدت تلك المجالس جزءاً من حياة
أغلب الشعراء . وربما كان الغزل بالسقاة والغلمان في تلك الحقبة مجازياً ، بقصد
التسلية أو التفتيس عن هموم الشعراء ، أو مجارة الأقدمين ، ولاسيما حين يصدر من
شعراء عرفوا بوازعهم الديني على أن لا ننسى أثر العناصر الدخيلة التي اختلطت
بالعرب من أتراك وروم وتتر ،

أيا مولاي يامن لا يَضاهاى	بحاتم في السَّماح ولا بمعنٍ
ويامن جودُهُ للنَّاس طُرّاً	مع الأوقات في خوف وأمن
بقيتَ الدَّهر للراجين حتّى	تعمَّ بجودك العافي وتُغنى (37)

2- فضلا عن انتشار تلك المجالس ، وسوء الحالة الاقتصادية ، التي أدت إلى
تفكك المجتمع ، وتعتيم النظرة إلى القيم والأخلاق ، وكذلك محاوله مجارة الأقدمين
في وصف تلك المجالس إذ نجد الحاجري يصف تلك المجالس وما فيها من شراب

وغلمان وسقاة في قصيدة حاول فيها أن يحاكي ، معلقة امرئ القيس في الوزن والقافية والأسلوب وتوظيف المفردات القديمة ، إذ يقول : (الطويل)

وكثيرًا ما يحن الشعراء لتلك المجالس ولياليها ويشتاقون لذكرها ، إذ نجد أبا النّناء بن أبي الوفاء الإربلي (كان حيا سنة 634هـ) يصف حنينه إلى تلك الليالي حين يعتمد إلى ذكرها ، وذكر صاحبها المسمى نيسان ، فيقول :

(الطويل)

ولما نزلنا عمّكاباذ شاقنا زيارة نيسان وحانته الكبرى
ذكرنا بها ليلات لهو حميدة تقضت مع الأحباب أكثرها شكرا
فياضيعة الأعمار إن كنت بعدها أعد زمني كلّهُ أبداً عمرا(41)
فهو يجد روح المرح والسرور والأنس في تلك المجالس .

3- مجالس الغناء والموسيقى : ارتبطت نشأة الشعر بالغناء والإيقاع ، وقد شاعت مجالس الغناء منذ العصر العباسي ، في طبقات المجتمع المختلفة . وعلى الرغم من صعوبة الحياة في تلك الحقبة ، وحالة عدم الاستقرار التي عانى منها الشعراء ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وكثرة التهديدات الخارجية التي ربما تدفع الناس إلى البحث عن وسائل ترويح لأنفسهم إلا أننا نجد أن هذا اللون من الشعر لم يشع كثيرا في تلك الحقبة ، إذ انحسرت الأشعار في وصف المغنين والملحنين عند عدد من الشعراء ، كقول عبد الله بن عمر الإربلي (-643هـ) في وصف عواد أحسن في لحنه : (السريع)

ومُطرب نُفُهُم أوتارُهُ الأسماعَ ما لا يُفْهَم النَّطُّقُ

كأنَّها رعدٌ ومن فوقها
كفَّاه في تحريكها برقُ (42)
إذ حاول أن يوظف مظاهر الطبيعة في مقطوعته، في إشارة إلى شدة صوت ذلك
العود

ممارسات اجتماعية :

1-المراسلات : حاول الشعراء أن يعبروا عن شوقهم وحبهم لأصحابهم من خلال
شعر المراسلات ، تثبيثاً لأواصر المحبة بينهم ، ولما لهذه المراسلات من مكانة في
نفس المرسل إليه ، وتعكس عمق الصلة الحميمة بين الشعراء ، ومن ذلك ما كتبه
أبو التناء بن أبي الوفاء الإربلي إلى عز الدين: (الطويل)

تحية من بالود منك كفيْل مُقيم بحفظ العهد ليس يحولُ
يُكلِّفُ خفاقاً بحمل سلامهإليك فخفاقُ النسيم رسولُ
أحملُه شوقي ولو كان مُمكنمِلْتُ ببحر الشَّوق حين يقولُ (43)

2-التهاني : شاع هذا اللون في العصر العباسي والعصور التي سبقتة ، إذ نجد
الشعراء يتهافنون على تهنئة الأصحاب أو تعزيتهم في رزية ألمت بهم ، وهذا السلوك
نقي من شوائب الحياة لأنه يعكس شعوراً صادقاً تجاه الأحاب ، كقول محمد بن أبي
محمد الكفرعزيالإربلي (-654هـ) ، في صاحب له قد مرض ثم شفي ، فحاول أن
يعكس ثقافته التراثية في هذه القصيدة من خلال تضمينها شطراً للمتنبي ، يهنئ به
صاحبه بالشفاء وداعياً على أعدائه بالألم ، فيقول: (البسيط)

الجودُ عوفيلماً أن شفيت من الألم والمجدُ والعلياُء والكرمُ
وعمَّ منك جميعُ الأولياء فدسوالفضلُ والحلمُ والإحسان والنعمُ
فلا مرضت ولا زارتك حادثَةٌ(وزال عنك إلى أعدائك الألم) (44)

3-التعازي : وفيه يحاول الشاعر أن يهيئ نفسه لاستقبال الزخم النفسي المحمل باللوعة والفراق ، حين يذرف الدموع المعبرة عن الألم والشجون، ولاسيما عند فقد الأحباب من الأقرباء والأصحاب ، فتتشاكل ألفاظ الرحيل والبين والحزن مع إحساس الشاعر ، وتتفاوت عاطفة الحزن حسب صلة الفقد ، حين يحاول الشاعر أن يخلع صور الحزن على شخصه من أعماق روحه .

و تتعاطم أحزان الشعراء بفقدان الأصدقاء ، فيبكي الشاعر نفسه مجسداً جزعه ، وحزنه ، على فقدان الصديق والخل الذي يؤنس وحشته ، ولاسيما حين يترادف فقد الأصدقاء ، إذ يعزي الشاعر بهاء الدين الإريلي نفسه حين رأى رحيل صديقه عز الدين عبد العزيز بن جعفر، والخواجا نصير الدين الطوسي ، ويحن إلى لقائهما فيقول والأسى يعلو نفسه : (الطويل)

ولما قضى عبد العزيز بن جعفر وأردفه رزء النصير محمد
جزعتُ لفقدان الأخلاء وانبرتُشؤني كمرفض الجمان المُبدّد
وجاشت إليّ النَّفسُ حزناً ولوعةًفقلتُ: تعرّى واصبري فكأن قد (45)
ويقف ابن الخباز مذهولاً أمام فعل المنايا وهي تسخر من أمانى الناس بأن يعمرُوا ،
ويجد أنّ أحزانه بفقدان الأصدقاء لا تنقطع حين تنقطع أوصال الفكر حزناً وألماً
بفقدهم ، يقول : (الطويل)

تمنى بنو الدنيا بها أن يُعمروا وإنّ المنايا من مُناهم لتسخرُ
تدورُكؤوسُ الموت في كُلِّ ليلةٍ ويومٍ وتُسقاها برغم فتكسرُ
أما في فناء الأصدقاء وفقدهمواردُ أحزان لها الفكرُ مصدرُ (46)
و نلمس في هذه الأبيات نسيجاً عاطفياً مؤلماً يجسد مواقف الحياة وآلامها ، إذ حاول
الشاعر أن يبيث ما تنفته خلجات النفس بما تفسح جنباتها تعبيراً عن ألمها وحزنها
تجاه الموت وجبروته .

الأعياد والمناسبات : سمت المعاني والقيم الأخلاقية والدينية في البلاد الإسلامية , بفعل التسامح والألفة التي لمسها المسلمون في الدين الحنيف , والأعياد الدينية تتميز بطابعها الخاص , ولا سيما عيد الأضحى المبارك , وعيد الفطر اللذان ارتبطا بسرور المسلمين وفرحتهم بعد أداء فريضة مهمة .

ولم يقتصر العيد عند الشعراء على النحر والفرحة , إنما اتخذ مناسبة للتهنئة والمدح والثناء للأمراء والوزراء والولاة , كقول أبي حامد الإربلي (-654هـ) يمدح قاضي القضاة حجة الدين , ويهنئه بعيد النحر :

(الوافر)

لنا عيدان عيد حيث وافى قدومك للإله به سلامٌ
وعيد النحر فأنحر للأعادي فحشو جسومهم خوفاً يدوم⁽⁴⁷⁾
وبذلك غدت مناسبة العيد مسوغاً للشاعر لأن يشدّ قريحته للمدح والولاء ووسيلة يحاول فيها أن يستدر عطاء الممدوح عن طريق الثناء عليه والإشارة إلى كرمه في هذا اليوم المبارك , كقول يونس بن سعيد الخراط يهنئ صاحب الوزير شرف الدين أبي البركات المستوفي الإربلي بالعيد : (الوافر)

بأيمن طالع عيّدت يامن بطلعته يُهنأ كُلُّ عيدٍ
ولازالت لك الأيام عوناً مُساعفةً على رُغم الحسود
ولابرحت صلاتك واصلاتٍ نَعْمُ بها القريبَ مع البعيد
نَعَوَدَ كَفُّكَ المعروف حتّى غدا وعطاؤه فوق المزيد
إذا نحر العدا نَعْمًا وشاءَ فضحّ ضحى بشأنك الحسود⁽⁴⁸⁾
ويشير شعر المناسبات إلى استجابة الشاعر لإحداث عصره عن طريق رصدّها للتعبير فيها عن مشاعره , لكنها لم تكن عميقة المعاني ولم يحاول فيها الشعراء استلهاً المعاني الإسلامية وحث الممدوح إلى الالتزام بها , إنما غدت وسيلة للمدح

والتكسب عن طريق الثناء على الممدوح ، والإشادة بكرمه وعطائه لذلك فقدت الكثير من قيمتها .

الدعابة والهزل والإلغاز : غدت البيئة سبباً مباشراً في شيوع هذا الفن في إربل في تلك الحقبة ، حين أمست السخرية والدعابة والخلط بين الجد والهزل ضرباً من الشعر قد يعتمد فيه الشاعر إلى العبث بشخص ما وإظهاره بصورة هزلية قصد التندر والظرافة ، وقد وظّف بعض الشعراء هذا اللون من الشعر من أجل التكسب حين مزج بين الجد والدعابة ، ولاسيما قول سليمان بن مظفر الإربلي المؤدب ، حين كتب إلى سعد الدين منتقلاً بين الجد والهزل ، ومتأثراً ببيئة الموصل الزاهية التي قضى فيها حقبة من الزمن حيث الطبيعة الزاهية ومجالس اللهو والشراب : (الطويل)

إلا قل لسعد الدين أسعده الله	وحياه من بين الأنام وأحياء
وسلمه من كل خطب يسوؤه	وأعطاه من دنياه ما يتمناه
عبيدك يامولاي قد جدّ جدّه	وقد عضّه الدهر الخوّن وعاداه
فجد بالذي يرجوه منك ولا تترق	بردك يامولاي ماءً مُحياه (49)

إذ نلاحظ ميل الشعراء في هذا الفن إلى الأسلوب الطريف ، والمفردة الشعبية القريبة من اللغة العامة ، حتى تجد قريباً في نفس متلقيها . وربما تأثر بعض الشعراء بصنعتهم (فالمجتمع له تأثيره على نوع الاستجابة للفكاهة أو لموضوعها ، مما يؤكد العلاقة الوثيقة بين الفكاهة ومختلف الظواهر الاجتماعية) (50) .

و تتفاوت استجابات الشعراء للفكاهة حسب الظواهر والتقاليد الاجتماعية السائدة مثل أبي البر الإربلي (-608هـ) الذي كان يصنع الألحان ويخترعها ، فتأثر بهذه

الصنعة ونظم شعراً طريفاً خفيفاً ، إذ يقول :

(مخلع البسيط)

ما لجنوني عليك راقي قد بلغت روعي التراقي
وعيل صبري لطول هجري فليت شعري متى التلاقي؟
ياممرضني بالصدود مهلاً فليس لي طاقةً الفراق
أما ترى زفرتي وناري عليك في الحبّ واحتراقي؟
فاطف لهيبي برشف فيك الـ عذب اللمى البارد المذاق
حسبك أنّي أفنيْتُ كُلِّي وأنّ وجدي عليك باقي (51)
وهذه الاشعار تشير إلى أنّ روح الخفة والطرافة كانت سائدة في ذلك العصر ، على الرغم من كثرة المحن والشدائد ، إذ ربما يجد الشاعر في هذا اللون من الشعر متنفساً يذيب فيه بعض همومه كما أنّه يعكس خفة روحه .

ويضاف إلى هذا اللون من الشعر شعر الألغاز والأحاجي ، والذي يُنظم بحثاً عن الطرافة ، وإضافة شيء من المرح في المجالس الاجتماعية ، من ذلك قول أحمد الفقيه الحنفي الكفرعزي الإربلي (-637هـ) في الديك :

(الطويل)

وما قائمٌ في ليله مُتهجّديزني نهاراً والخلاتُ تشهّدُ
ولأعقر في ذا الوطء والحدّ ساقطٌ ولا غُسلَ فيه كيف ذا الأمرُ يوجدُ
ببرٍّ إذا ما كان طفلاً بأُمّه وتحنو عليه الأمُّ خوفاً وترعدُ
إذا ما أتى حولاً عليه يكن لها عقوقاً ويجفوها ملالاً ويحفّدُ (52)
وتشير مثل هذه الإشعار إلى خفة دم هؤلاء الشعراء ، ولاسيما أنّها تنظم من فقيه عُرف بورعه وتقواه . ومثله قول ابن الخبز حين يلغز في اللحية : (الطويل)

وصاحبة مصحوبها لايملأها إلى الموت يكسي جسمها ثوبي الدهر
 يخاف إذا ما صارمته وأنه يرى هجر بعض إن أحب أبا بكر
 تصابُ بغسلٍ إن أُصيب ولم تكنلُغشى ويحيا الطهر إن كان ذا طهر⁽⁵³⁾
 وللشاعر إشعار كثيرة يلغز فيها الديك والدجاجة وغيرهما ، وتشير سيرته إلى أنه
 سكن الموصل إلى حين وفاته ، ولا يمكن أن نتجاهل أثر بيئة الموصل في شعره
 ومذهبه ، لما عرف من ميل أهلها إلى مجالس المرح واللهو كما أشرنا سابقا .

الشوق والحنين :قد تكمن أهمية الشعر في دلالاته الاجتماعية إذا ما تجاوزنا دلالاته
 الفنية ، حين تتفاوت مستوياتها ، و يصاحب الشوق والحنين بكاء الشاعر وأنيبه ،
 ولاسيما حين يهاجر عن وطنه ومرتع حبه فتزداد وطأه اليأس باللقاء ، ومن ثم تزداد
 نغمات الحنين والشوق ، و يشير د. إحسان عباس إلى أن كثرة أسماء الأماكن عند
 هؤلاء الشعراء تعبر عن القلق الذي يهزهم نحو الاستقرار ونحو المكان أو الموطن
 الذي أحبوه⁽⁵⁴⁾ كقول طه بن إبراهيم الإريلي حين سافر إلى الشام : (الكامل)

أُذكرني الأوطان إنْ لذكرها أرجًا يشوقُ إلى الديار نفوسا
 ذكرتنيها فاجتلبتْ بلبليونشرتْ من داء الغرام رسيسا
 هي ما علمتْ منازلِي زمن الصِّباتجلو البُذور بها عليَّ شُموسا⁽⁵⁵⁾
 وقد يحن الشاعر لأيام الصبا ، ويحن إلى أيام اللهو وتلك أمنية غير متحققة ، أدرك
 حقيقتها في لحظات الجزع والحزن ، كقول بهاء الدين الإريلي حين يحن لأيام
 الشباب: (الخفيف)

فطلابي رجوع ما فات من عصـ ر الصبا والشباب عين المحال
 (56)

فأدرك هنا تلاشي الشباب ، وذلك إحساس يؤذيه ، فهذا الحنين إلى الماضي ما هو
 إلا محاولة للانعتاق من وطأه الحاضر .

كما أنَّ الغزل لم يسلم من نزعة اليأس ، والإحساس بالمرارة والمعاناة ، التي قد تدفع الشاعر إلى الشعور بالوحدة النفسية وذلك لما في الغزل (من الاستبطان النفسي قدر ما كان فيه من فن الأداء والتعبير، وكان فيه من ترصد المشاعر الذاتية ما يؤكد أنَّ الشاعر لم يكن فكريًا ولا بسيطًا) (57) إذ إنَّ استرواح العذاب ، واستحلاء الألم أمر تنتشه سعادة العاشق ، فتظل تائقة إليه ، إذ صور الشعراء الفراق والوداع والرحيل ، وما يدور فيه وما يولده من شوق وحنين من خلال الإشارة إلى بكاء الحمام ومظاهر الطبيعة الحزينة وغيرها من الأمور التي وظَّفها الشاعر للتعبير عن نفسه ، وبعض مواقف الحياة ، ولا داعي لسردها فهي وفيرة أغنانا الباحثون عن ذكرها (58)

النصح والإرشاد:

إنَّ لظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية القاسية ، فضلا عن ميل الناس عامة لاحترام الزهاد وتوقيرهم والنظر إليهم بإكبار وإجلال (59) ، أثرًا ساعد على اتساع موجة الزهد بين الشعراء ، إذ وجد بعض الشعراء أنفسهم - وهم الذين عرفوا برهافة الحس ورقة الشعور - في عالم كئيب حين بدأوا يشكون هذا الواقع الأليم ، فازدادت موجة الزهد ، وزحف الوعظ والشعر الديني إلى أماكن لم يعرفها من قبل ، ولست استبعد أن يكون بعض الحنين والألم في شعرهم مرده إلى الوعظ الصوفي ، فضلا عن طبيعة الإنسان العراقي الميالة إلى الحزن والطرب في الغناء الحزين الذي يثير شعورًا نحو أمل ضائع ، أو حبيب ليس إلى لقائه من سبيل .

لذلك نجد أنَّ بعض الشعراء اخذ يتزَيَّأ بزي الصوفية ويحاكي شعره الحب الإلهي بعد ما عُرف عنه من مجون وخلاعة ، كالحاجري الذي دفعته مأساة السجن إلى السعي في طريق الصوفية ، وأخذ يحن في شعره إلى الديار الحجازية ومدح الرسول p ،

كما استوطنت الحكمة نفسه وجعل شعره مواعظ يقنع النفس بها ، إذ يقول في سجنه
(البسيط):

من شيمة الدهر إعراض وإقبالُ فما يدومُ على حالاته الحالُ
وكلُّ شيء وإن اعيأ له أجلُ يُقضى عليه كما للناس آجالُ
بيننا تكون منونُ الخطب نازلةً تُلقِي الرِّجالُ ، تراها وهي قُفَّالُ
للشامتين بنا يومٌ نصولُ به عليهم بالأمانى مثل ما صالوا (60)
في حين يتأثر غيره بصنعتة ، إذ نجد (سليمان بن المظفر الإربلي) المعلم يلتزم
الحكمة والموعظة في شعره ، لأنَّه كان مؤدِّباً للصبيان ، إذ يقول: (البسيط)

قالوا المشيبُ نذيرُ الموت قلتُ لهمكم من صغيرٍ قضى نحباً وما شابا
وكم رأينا فتى السِّنِّ قد علقتبه شعوبٌ ، وشيخاً عاش أحقابا (61)
وفي قوله هذا دعوة إلى مخافة الله والتزام أوامره في كل وقت وحين ، لذلك يدعو
الشعراء إلى الوعظ وطلب المغفرة ، والسعي إلى العمل الصالح وأخذ العبرة من
الشييب والزمن ، إذ يقول يوسف الكفر عزي الإربلي :
(البسيط)

ياراكباً في بحار الظُّلم مُلتحفاً غيَّ الشَّباب وقد غُمَّت غياهبُه
أفعالكُ السُّودُ ناسبتَ الشباب بها وابيضُ فودُك فافعل ما يُناسبه
إنَّ النظارة قد ولَّت نظائرُها وأقبلَ الشَّيبُ تغزُّونا كتائبُه (62)
وعلت دعوات النصح والإرشاد ، ودعوة الناس إلى أخذ العبرة وتجاهل السفهاء ،
لتجنب أثرهم في سلوك ذوي الحجب ، إذ يقول علي بن أبي القاسم المحرزي الإربلي
(-621هـ) : (الكامل)

احذر مُصاحبة السَّفِيه فإنَّها تُعدي كما يُعدي الصَّحيح الأجرُ

ما ينفَعُ الجرباءُ قُربَ صحيحةٍ منها ولكنَّ الصحيحةُ تجربُ (63)
 إنَّ توظيف بعض المصطلحات المقتبسة من الواقع الاجتماعي ، تعكس اهتمام الشعراء وتأثرهم بالظاهرة الاجتماعية التي تحمل عمق كيانهـم ، ذلك أنَّ الفنان يستمد قيمه من تراثه والواقع الذي يعيش فيه ، كونهما منبع الإلهام الفني الذي بنى الشاعر منه واقعه بعد أن وظَّف الأصل ليحقق منه عملاً فنياً يُعبر عن غاية مثالية خيالية ، تعتمد رؤية الشاعر الخاصة بالإبداع ، بوصفه استجابة ذاتية لحافز موضوعي أو تراثاً مخزوناً في ذاكرته .

لذلك نجد أنَّ الشاعر المحرزي الإربلي اقترب من هموم مجتمعه مما يؤكد انتمائه الطبقي الذي يحدد رؤيته للأزمة التي يعيشها الناس ، مؤكداً على التأثير المتبادل بين الواقع والأدب ، فتتوَعَت مفاهيم الشعراء حسب استجابتهم للواقع وانتماءهم الطبقي ، وتعددت مناظيرهم لمعالجة مشاكل المجتمع ، حسب تأثرهم بالواقع الاجتماعي، فكان الفرق بينهم في رؤية كل منهم لصورة إربل والواقع الاجتماعي في ذلك القرن .

الهوامش

- (1) فن المقامات بين المشرق والغرب ، د- يوسف نور عوض ، منشورات مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط 2 ، 1406 هـ - 1986م ، ص 18 .
- (2) ينظر إربل في العهد الأتابكي - محسن محمد حسين - مطبعة أسعد - بغداد ، 1976م ، ص 7 وما بعدها .
- (3) ينظر الشعر في إربل في ظل الأسرة البكتكية ، د- ناظم رشيد مجلة آداب الرافدين - كلية الآداب - جامعة الموصل - العدد 9 ' 1978م ، ص 385 ، وللمزيد عن إربل ينظر تاريخ إربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورد من الأمائل - تأليف شرف الدين الإربلي بن المستوفي ص 20-52.
- (4) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه - اليزابيث دور ترجمة محمد إبراهيم الشوش ، مطبعة عيناني الجديدة - بيروت ، ص 25.
- (5) قلائد الجمان - لابن الشاعر الموصلي - تحقيق كامل سليمان الجبوري . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 2005م ، مج 1 ، ج 1 ، ص 150 ، والشاعر هو إبراهيم بن المظفر أبو إسحاق بن أبي العز المستوفي الإربلي ولد سنة 591 هـ من بيت جليل في إربل في الرئاسة ، حفظ القرآن ، ويحفظ الشعر ، تولى التصرف لأمراء إربل ، ينظر المصدر نفسه ص 150-152.
- (6) ديوان ابن الظهر الإربلي - تحقيق د- عبد الرازق الحويزي ، مكتبة الآداب - القاهرة ، ط 1 ، 2006م ، ص 65 ، والشاعر هو محمد بن أحمد بن عمر الإربلي الملقب بمجد الدين من إعلام الفكر العربي ، كان ديناً فاضلاً له يد طولى في الأدب والنحو ، ولد سنة 602 هـ ، هاجر إلى دمشق وتوفي فيها سنة 677 هـ ، ينظر م. ن ص 14 - 20 .

(7) قلاند الجمان مج 4 / ج 5 ص 255 ، والشاعر هو عمر بن إبراهيم أبو حفص الإربلي ينعت بالخال ولد سنة 590 هـ خدم جنديا للأمرء ، يلحن في انشاد والشعر ، أشعاره مطبوعة خفيفة غير مكلفة .

(8) تالي كتاب وفيات الأعيان - فضل الله بن أبي الفخري الصقاعي ، تحقيق جاكين سويله - دمشق 127/1

(9) نقد الشعر في المنظور - النفسي ، د. ريكان إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1988 ، ص 136 .

(10) ديوان الحاجري ، دراسة وتحقيق صاحب شنون الزبيدي (رسالة ماجستير) كلية الآداب - جامعة بغداد 1988م ، ص 363 والشاعر هو حسام الدين عيسى بن سنجر بن جبريل الإربلي ولد سنة 582 هـ في إربل ، تلقى علوم القرآن واللغة والأدب ثم رحل إلى الموصل ثم عاد إلى إربل توفي في سنة 632 هـ ، ينظر المصدر نفسه ص 30-25 .

(11) المصدر نفسه: ص 373 - 374 وينظر ص 367 ، 369 ، 376 ، 378 .

(12) ينظر نقد الشعر في المنظور النفسي ص 138 .

(13) قلاند الجمان مج 3 ، ج 4 ص 288 ، والشاعر هو علي بن شماس بن هبة الله بن أبي الفضل الإربلي المولد والمنشأ ، له رتبة ومكانة رفيعة ، سجن حتى مات محبوساً سنة 622 هـ ، ينظر م . ن ص 288 .

(14) شعر السجون في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري هادي سدخ أصغير ، رسالة ماجستير - كلية الآداب - الجامعة المستنصرية ، 1996م ، ص 230 .

(15) قلاند الجمان مج 1 ، ج 1 ، ص 361 ، والشاعر هو إسحاق بن معالي بن شماس بن هبة الله الإربلي عالم بأيام العرب ، سجن ومات في السجن سنة 617 هـ ، ينظر المصدر نفسه ص 160 - 162 .

(16) القلق والاعتراب في الشعر العربي قبل الإسلام ، عمر محمد الطالب ، دار عكاظ المغرب ، 1988م ، ص 98 .

(17) قلائد الجمان مج 1 / ج1/ ص 362 .

(18) الأنثروبولوجيا النفسية ، د- قيس النوري - دار الحكمة للطباعة والنشر - جامعة بغداد ، 1990، ص 292

(19) ينظر الاعتراب في الشعر الجاهلي - أحمد صالح الزعبي ، أطروحة دكتوراه كلية الآداب - الجامعة المستنصرية 2004 م ، ص 71.

(20) قلائد الجمان مج 1 ، ج 1 ، ص 131 ، الندس : الفهم الكيس ، والشاعر هو إبراهيم بن عمر أبو إسحاق المعروف بابن البورياني الخطيب ، تولي الخطابة في قرية شهر كرد ، ذو قريحه سليمة في الشعر من حفظة القرآن ، ينظر م ن ص 130 .

(21) ديوان ابن الظهير الإريلي ص 77-82 ، وينظر ديوان الحاجري ص 63 .

(22) قلائد الجمان مج 2 / ج3 ص 75 ، والشاعر هو سليمان بن جبرائيل بن عاصم أبو حامد العقيلي الإريلي الفقيه الملقب بالجعل ، لأنه كان شديد سمة اللون ، سافر إلى خراسان ثم عاد إلى إربل وصار مدرسا للشافعية فيها ، ينظر م . ن ص 74 - 75 .

(23) مشكلة الإنسان - زكريا إبراهيم - مكتبة مصر ، القاهرة ، 1970م ، ص 76 .

(24) ديوان النشايي - دراسة وتحقيق عبد الله محمود طه ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، 1985 ، ص 326 ، الشاعر هو أسعد بن إبراهيم أبو المجد مجد الدين النشايي الإريلي توفي سن 657هـ .

(25) ديوان صاحب بهاء الدين الإريلي ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، مجلة الذخائر ، ع 6 ، 7 ، 2001 ، ص 57 ، والشاعر هو بهاء الدين عيسى الإريلي من الصدور الأمائل تولي كتابة الإنشاء وناظر أوقاف بغداد ، له مؤلفات كثيرة توفي

سنة (692هـ) ينظر فوات الوفيات محمد بن شاکر الکتبی , فوات الوفيات , تحقیق

د- إحسان عباس , دار الثقافة , بیروت , 1974م . 57/3 - 59

(26) قلاند الجمان مج 8 , ج 10 ص 306 , والشاعر هو یوسف بن نفیس بن أبی

الفضل بن أبی المعالی المرّلي , من أهل إریل ولد سنة 586هـ , كان ینظم فی

الهزل والعامیة وینظم ما یشاء من غیر فکرولا رویة رحل إلى الموصل , توفي سنة

638هـ .

(27) المصدر نفسه ص 306 .

(28) المصدر نفسه مج 1 / ج 1 ص 362 , والشاعر هو إسحاق بن المعالی بن

شماس أبو إبراهیم الإریلی , كان عالمًا بأيام العرب وأشعارها , خبیرًا بلغتها وأخبارها

, توفي فی السجن سنة 617هـ .

(29) المصدر نفسه مج 6 / ج 7 ص 57 , والشاعر هو محمد بن احمد عمر أبو

عبد الله الإریلی الکفر حرّی ولد بإریل سنة 602هـ , من فتيان إریل اعتنى بقول

الشعر , یجید معانیه فی الهجاء توفي سنة 697هـ .

(30) المصدر نفسه مج 1 , ج 1 , ص 157 , وینظر الحوادث الجامعة لابن الفوطی

ص 415 .

(31) المصدر نفسه مج 6 / ج 7 ص 57 , ينظر مج 3 , ج 4 ص 11 .

(32) ينظر مشكلة الحياة :- زکریا ابراهیم - دار مكتبة مصر للطباعة , الفجالة ,

ص 133 .

(33) العمدة - لابن رشيق القيرواني - تحقیق: محمد محیی الدین عبد الحمید مطبعة

السعادة - مصر , ط3 , 1963 , 2 / 174 .

(34) قلاند الجمان مج 3 / ج 4 ص 214 , وینظر مج 2/3 ص 126 والشاعر هو

عثمان بن إبراهیم بن علي الرصاصی الإریلی , كان مداحًا وهجاءً تنقل بین المدن ,

وعاد إلى إریل ینقش سکک الدنانیر إلى أن توفي سنة 632هـ .

(35) الفكر طبيعته وتطوره - نوري جعفر , منشورات مكتبة التحرير - بغداد , ط 1 , 1977م , ص 255.

(36) دراسات في الشعر الجاهلي , نوري حمودي القيسي - جامعة بغداد , 1972م , ص 113 .

(37) قلائد الجمان مج 8 / ج 10 , ص 325 - 326 , والشاعر هو يونس بن سعيد بن عيسى ابن أبي الخير الخراط الإربلي , كان من أهل القرآن والفضل , رجلاً خيراً متديناً استشهد بإربل سنة 634 هـ .

(38) المصدر نفسه مج 2 / ج 3 , ص 68 , وينظر فوات الوفيات 4 / 181 .

(39) نقد الشعر - قدامه بن جعفر , تحقيق د- محمد عبد المنعم خفاجي , دار الكتب العلمية - بيروت , د. ط. د. ت , ص 109 .

(40) ديوان الحاجري 313-314 .

(41) قلائد الجمان مج 1 / ج 1 ص 275 , والشاعر هو احمد بن قرطايا , أبو الثناء بن أبي الوفاء الإربلي ولد سنة 598 هـ كان جيد القول حسن الحظ يعرف علم النجوم , سافر نحو حلب ثم عاد إلى بغداد إذ عمل ديوان المستنصر وأكرمه غاية الإكرام .

(42) المصدر نفسه مج 2 / ج 3 ص 225 , والشاعر هو عبد الله بن عمر بن صالح أبو محمد الإربلي , ولد سنة 576 هـ , من أبناء المتصرفين والحساب والمساحة توفي بإربل سنة 634 هـ , ينظر م. ن ص 223 - 225 .

(43) المصدر نفسه مج 1 / ج 1 ص 274 , والشاعر هو محمد بن جعفر بن محمد بن هبة الله الكفرعزي الإربلي ولد سنة 584 هـ , تولى كتابة الإنشاء لدولة الملك كوكبوري بن بكتكين سنة 629 هـ .

(44) المصدر نفسه مج 6 / ج 7 ص 69 .

(45) ديوان الصاحب بهاء الدين الإربلي ص 53 .

- (46) قلائد الجمان مج1/ج1 ص 262 ، والشاعر هو أحمد بن الحسين بن أبي المعالي المعروف بابن الخباز ، حفظ القرآن وتردد إلى علماء الموصل ، شاعر جيد توفي سنة 639 هـ ينظر المصدر نفسه ص 253 .
- (47) المصدر نفسه مج2/ ج3 ص 304 ، والشاعر هو عبد الرحمن بن محمود بن بختيار أبو حامد الكاتب الإربلي ، تفقه على مذهب الإمام الشافعي نشأ في الموصل هاجر إلى حلب .
- (48) المصدر نفسه مج8/ج10 ص 325 وينظر ، فوات الوفيات 79/5 .
- (49) المصدر نفسه مج2/ ج3 ص 79 ، وينظر ص 39 .
- (50) الفكاهة الأندلسية ، د- حسين خرويش ، منشورات جامعة اليرموك - الأردن ، 1982 ، ص 8 .
- (51) قلائد الجمان مج2 / ج3 ص 125 وينظر ص 127 ، والشاعر هو صدقة بن محمد بن علي الملحق أبو البر الإربلي ، كان يصنع الألحان ويخترعها ، ويصنع أقوالاً يأخذها عنه أهل الطرب ويغنى ، بها توفي سنة 608 هـ ، ينظر م . ن ص 25 - 126 .
- (52) المصدر نفسه مج1 / ج1 ص 293 ، عُقر : صداق ، والشاعر هو أحمد عمر بن أحمد الحنفي الكفرعزي ، سمع الحديث والفقہ بإربل ، ثم درس فيها ولد سنة 567 هـ وتوفي سنة 637 هـ .
- (53) المصدر نفسه مج1/ج1 ص 262 وينظر ص 263 ، 265 ، مج4/ج5 ص 253.
- (54) ينظر ديوان القتال الكلابي ص 26 .
- (55) قلائد الجمان مج2/ ج3 ص 166.
- (56) فوات الوفيات 57/3 .

- (57) آثار التجربة الحياتية في الإبداع الأدبي - عبد الكريم غلاب , مجلة الأكاديمية - العدد 9 , 1992م , ص 104 .
- (58) ينظر مثلاً كتاب الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري ص 118 و ديوان الحاجري ص 246 , 157 , 217 , فوات الوفيات 58/2 .
- (59) ينظر تلبيس إبليس - لأبي الفرج ابن الجوزي - مطبعة النهضة، مصر 1970 ص 166 .
- (60) ديوان الحاجري ص 368 , ينظر ص 265 , 476 .
- (61) قلائد الجمان مج2/ج3 ص 79 .
- (62) المصدر نفسه مج8/ج10 ص 309 .
- (63) المصدر نفسه مج4/ج5 ص 104 .